



ناصر الجارحي

اللغة العربية ودورها الحضاري

تحدث الكاتب محمد عطوات حول نشأة اللغة العربية وتطورها، وذكر أن اللغة تنبعث من الحياة الجمعية، وهي وسيلة ضرورية للتفاهم وتبادل الأفكار؛ فهي ليست غاية لذاتها، بل وسيلة ونظام يتلقاه الفرد من مجتمعه، وارتباط اللغة بالإنسان ارتباطاً ثقافياً وتاريخياً وفكرياً، ومنها يستمد الإنسان شعوره ووعيه القومي، وتبرز أهمية اللغة العربية -والتي تعتبر إحدى أهم اللغات في تاريخ البشرية- بارتباطها بالكتاب المقدس، رغم أن القرآن لم يستخدم لفظ لغة، بل كلمة لسان كقوله تعالى «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» سورة الشعراء (١٩٥).

ودفعتهم إلى استخدام كلمات جديدة، فكما كان يروى عن زياد قوله: «إن المراضع من الموالى قد أفسدوا ألسنة الذين أرضعهم من العرب». وهذا الأمر ينطبق علينا في الوقت الحاضر؛ حيث انتشرت العمالة الآسيوية في البيوت الخليجية، مع وجود فارق حيث لم تعد مصدريّن للحضارة واللغة العربية. ... تلاقح اللغات يتعلّق عادة بالمفردات، خاصة فيما يرتبط بحركة التبادل بين اللغات؛ لذا نجد أن اللغات الأوروبية أخذت الكثير من الكلمات العربية، والتي ارتبطت بالتبادل التجاري؛ مثل: الليمون والزعفران، والسكر، والكافور، والقهوة، والقطن. أما القواعد وأساليب الصوت، فيصعب انتقالها بين لغة وأخرى، كذلك عند دراسة تطور اللغة نجد أن للأدب والترجمة دوراً كبيراً؛ فاللغة مثل الوعاء، وكلما زاد رصيد اللغة -وذلك من خلال إحياء الأدباء والعلماء لمصطلحات، أو قيامهم بإنتاج مصطلحات جديدة عن طريق الإنتاج العلمي والفكري والأدبي- كل ذلك يسهل من مهمة حفظ اللغة وتعليلها وتوسيع نطاقها وتكملة نقصها وتهذيبها من وحي المفردات والقواعد والأساليب وتسجيل آثارها واستخدامها في مختلف فروع الكتابة والتأليف، كما أن للترجمة الدور البالغ في انتشار اللغة واستخدامها في مختلف المجالات العلمية والحياتية؛ فالترجمة إحدى أهم وسائل الانتشار ونهوض اللغة.

... إن أهم التحديات التي تواجه اللغة العربية أن عامة الناس لا تتحدث الفصحى؛ فتجد الشخص يتحدث مع الناس في السوق والعامل وأسرته بالعامية فيركز على الفكرة، ولكن عندما يقف أمام الجمهور مثل المعلم أو المحاضر تجده يتحدث بالفصحى فيركز على لفته أكثر من تركيزه على الفكرة؛ مما يجعله يعيش في ازدواجية حقيقية فيرتدي زي شخصية لغوية ثانية، فيصرف جهده العقلي إلى اللغة وتصبح اللغة العربية مخدمة لا خادمة. هذه الازدواجية تحدث في الشعوب الأخرى، وعادة ما تنتصر لغة الشعب، ولكن في اللغة العربية نجد تبايناً بين الفصحى والعامية كما أن الشعب الوحيد الذي يجب أن يفهم ليقراً بينما باقي الشعوب تقرأ لكي تفهم. ولكي تتقدم اللغة، علينا أن نزيد من إنتاجنا المعرفي وتبسيط قواعد النحو وكذلك تبسيط وتيسير اللغة وتقاربها من لغة الكلام، فكما زاد التبادل والتعاون ضاقت الهوة ويصبح بالإمكان القول بأنها لغة المستقبل كما أنها لغة الحاضر والماضي.

والقبطية والبربرية. اللغة العربية كغيرها من اللغات تخضع لقوانين السنن الكونية من خلال متغيرات داخلية وخارجية. أما المتغيرات الداخلية -مثل اللحن- فيرى رمضان عبد التواب أنه «مخالفة العربية الفصحى في الأصوات، أو في الصيغ، أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ». ونجد من التعريف أن اللحن هو ابتعاد العامية عن الفصحى، ويقال إن أول ما ظهر اللحن كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد روي أن رجلاً لحن بحضرته، فقال: «أرشدوا أحاكم فقد ضل». ونتيجة لاتصال العرب بالحضارات الأخرى وانتشار اللحن وشيوع الخطأ تم وضع علم النحو، ومن التغيرات أيضاً اللهجة وهي في الاصطلاح العلمي الحديث «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة». ونجد في وقتنا الحاضر تعدد اللهجات وتباينها، من المغرب العربي حتى المشرق، بل ونجد أبناء الوطن الواحد لا يستطيع أهل الشمال فهم أهل الجنوب؛ مما يضيف تحدياً كبيراً للغة العربية في الوقت الراهن. كذلك من التغيرات، نجد كلمات متعددة الاستخدام مع زمن معين تصبح مخصصة مثل كلمة جريدة، والتي كانت تعني «الجريدة من الخيل جماعة من الخيل جردت من سائر الخيل لأمر ما، والجريدة سعة طويلة وقيل: هي النخلة كالقضب للشجرة»، وقد أصبحت الآن تستخدم غالباً بمعنى صحيفة، وكلمات يتسع معناها مع الزمن أو تنحسر وتستخدم عوضاً عنها كلمات أكثر تخصصية. أما صراع اللغات فلا يرتبط بالكانات الحية وثقافتها وهويتها؛ فهي تدخل في صراعات الشعوب، وتكون النتائج متفاوتة تبعاً إلى مقومات اللغة نفسها وكذلك الأمة ومدى رقيها الحضاري وقدرتها على فرض حضارتها وقوتها؛ لذا يفرض المنتصر لغته وتتسع رقعة لغته. أما إن كانت الحضارتان المتصارعتان في حالة ضعف وانحطاط، فيغيب الجانب النوعي وتسود اللغة التي تحمل عدداً أكبر من الناطقين بها، هذا في حالة الصراع، ولكن هناك تأثيرات كثيرة على اللغة نجدها من خلال نزوح مجموعة كبيرة من السكان إلى منطقة معينة حاملين معهم ثقافة ولغة معينة، ونجد ذلك في منطقة الخليج العربي من خلال العمالة الآسيوية الكبيرة، والتي أثرت على السكان

... إن أقدم آثار اللغة العربية -والتي تنتمي إلى اللغات السامية- لا يتعدى القرن الخامس قبل الميلاد؛ لذا لا نعلم كثيراً حول نشأة اللغة وتطورها، وعلى ضوء الآثار التي وصلت إلينا يمكننا تقسيمها إلى العربية البائدة والتي تسمى أيضاً عربية النقوش والتي كانت تستوطن شمال الحجاز، والعربية الباقية التي نشأت في الحجاز ولا تزال مستمرة كلغة أدب وفكر وحضارة للأمة العربية، كما يعتقد بعض اللغويين أن الكلمة في اللغة نشأت من حرفين، في حين يرى فريق آخر أنها نشأت من ثلاثة أحرف، ثم تطورت من خلال زيادة أو حذف أو قلب أو إبدال أو صيغة، أو غاية، أو فكرة دون أختها.. إن تطور اللغة يعتمد على عوامل اجتماعية تتعلق بحضارة الأمة وأنشطتها الثقافية والفكرية والعملية، ومدى تأثرها باللغات الأخرى والعوامل الجغرافية وانتقال اللغة من الخلف إلى السلف، وكذلك طبيعة اللغة نفسها وحجم قابليتها للتغير والتطوير.

لقد كان للقرآن الكريم والحضارة الإسلامية الدور الكبير لانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة؛ مما انعكس على اللغة وأدى إلى تهذيبها وارتقاء أساليبها فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول؛ مثل: القيل الدبر، قارب النساء... الخ، ولقد تأثرت اللغة العربية سابقاً بالأرامية فاكتمت منها بعض المصطلحات والتي ارتبطت بمنتجات الصناعة وشؤون التفكير الفلسفي والمتصلة بما وراء الطبيعة؛ مثل: «شيطان، سكين، سارية... الخ». ولكن بعد نهوض الحضارة الإسلامية كان للفتوحات الإسلامية الدور الكبير في تأثير اللغة العربية على لغات أخرى كالفارسية، وكذلك أدت إلى نضوب لغات كالآرامية